المسلمون وأوروبا : قراءة في جذور العلاقات

حاتم الطحاوي *

إن تاريخ العلاقات بين المسلمين وأوروبا منذ ظهور الإسلام حتى الفتح الإسلامي للقسطنطينية في منتصف القرن الخامس عشر للميلاد يحتفظ بأهمية بالغة، خاصة وأن تلك الفترة مَثّلتْ مسرحا كبيرًا لجملة من الحوادث التاريخية الضخمة، التي تركت آثارا وندوبا على سطح العلاقة بين العالمَيْن، كما مثلت أيضا بوتقة كبرى انصهرت فيها ثقافتهما، وخرجت عن ذلك مجموعة من المفاهيم التي انتقلت بشكل طبعي إلى عصرنا الحديث، ومثلث محددات ومنطلقات فكرية لعلاقة كلّ طرف بالآخر.

ولعلنا لاحظنا جميعا منذ فترة قريبة بعض إفرازات الفكر الأوروبي تجاه الإسلام ونبي المسلمين ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم تكن تلك الأفكار وليدة واقع المسلمين المعاصر، بقدر ما كانت وليدة للعصر الأوروبي الوسيط (عصر الإيمان) الذي لم يستطع استعياب المسلمين ودينهم.

لقد حكمت الرؤى الإسلامية المسيحية الأولى للإسلام كافة ردود الأفعال التالية، فقد طغت تلك الرؤى السلبية للإسلام ورسمت ووجهت السياسات الأوروبية تجاهه.

ومن نافلة القول أن نذكر أن النخبة الأوروبية التي صاغت تلك الرؤى جاءت من رجال الكنيسة: القادة الروحيين للشعب الأوروبي المسيحي، والوحيدين الذين حَظوْا بقدر لا بأس به من التعليم في مواجهة باقي طبقات الشعب الأوروبي العلماني، وهو ما جعل معظم الناس في أوروبا آنذاك لا يعرفون شيئا عن الإسلام.

ولكي نتعرف على تلك الرؤى الأوروبية الأولى للإسلام، لابد لنا من العودة إلى ذكر الحكاية من أولها:

عندما بزغ نور الإسلام بالجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي، كان من الطبيعي أن تنتقل أخبار الدين الجديد وأخبار نبي الإسلام إلى الدولة البيزنطية (دولة الروم بحسب المصادر التاريخية الإسلامية)، وذلك عبر أتباعها من المسيحيين الشرقيين من العرب كالغساسنة وغيرهم، فضلا عن السريان والأرمن في بلاد الشام، وعلى حين كانت رؤى المسيحيين العرب حادة تجاه الإسلام؛ فإن رؤية المسيحيين الأرمن الأولى التي صاغها الأسقف سيبيوس (Sebeos) عام 675م -المعاصر لفتوح المسلمين لبلاد الشام وأرمينية- كانت أقلّ حدة؛ إذ تحدث عن الرسول بوصفه صاحب رسالة للعالمين، وأنه مكلف بإيصالها لجميع البشر، كما ذكر دَفْعَ الإسلام أتباعة للفتح والشهادة في سبيل الله، لدرجة أن سيبيوس أورد في مصنفه الآية 160 من سورة آل عمران: (إن ينصركم الله فلا غالب

لكم).

وربما كان هذا الموقف المتزن نوعا ما من قبَل الأسقف سيبيوس قد جاء بسبب نضج النظرة للإسلام الأول، فضلا عن خلافات الأرمن المذهبية والسياسية مع الدولة البيزنطية التي حاولت دوما فرض مذهبها الديني بالقوة على الكنيسة الأرمينية.

وإبان العصر الأموي دبجت العديد من كتابات المسيحين العرب المناهضين للإسلام، وعلى رأسهم يوحنا الدمشقي (55-131هـ/576-947م)، الذي كتب العديد من الرسائل والكتب في مهاجمة العقيدة الإسلامية، وأهمها كتابه (هرطقة الإسماعيليين) الذي وصل إلى البيزنطيين ووجدوا فيه دعاية طيبة، ومنطلقا فكريا لهجماتهم العقائدية ضد الإسلام؛ خاصة بعد أن زعم فيه أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد ادعى النبوة بعد قراءته للكتاب المقدس (العهدين القديم والجديد)، وتَعَلمه مبادئ المسيحية على يد راهب أريوسي، كما ترجم هذا الكتاب فيما بعد إلى اللغة اللاتينية، واعتمدت عليه الكنيسة الكاثوليكية في روما، وجعلت منه ركيزة أساسية في الهجوم على الإسلام والمسلمين.

كما قام المسيحي العربي عبد المسيح الكندي (ق 4هـ-10م) بكتابة حوار يهاجم فيه الإسلام، وتُرجم هذا العمل أيضا إلى اللاتينية فيما بعد بواسطة بطرس أسقف طليطلة؛ وذلك من أجل استخدامه في الدعاية ضد المسلمين بالأندلس، خاصة بعد زعْم الكندي أن شريعة الإسلام من شريعة الشيطان التي تتصف بالميل للحرب والعدوانية عبر الانتشار بحد السيف. وكان الهدف الحقيقي من وراء تلك الكتابات المسيحية العربية المضادة للإسلام هو محاولة رجال الدين الحيلولة دون اعتناق العديد من مسيحي الشام للدين الإسلامي، خاصة بعد تزايد دخول العديد منهم في الإسلام نتيجة لتسامح الإسلام ورحابته، خاصة إبان العهدين الأموي والعباسي.

وفيما بعد، وبعد أن أمر الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك (10-105هـ) 270-724م) بتحطيم كافة الأيقونات في كنائس بلاد الشام باعتبارها مؤشرا على الوثنية أصدر الإمبراطور ليو الثالث الأيسوري (Leo III) أمرا مماثلا بتحطيم وتحريم عبادة الأيقونات في دولة الروم وسط معارضة قوية من الرهبان ورجال الكنيسة، الذين اتهموا الإمبراطور بتأثره بالمؤثرات الإسلامية المناهضة للتماثيل والأيقونات، في الوقت الذي اعتبرها فيه رجال الدين البيزنطيين بمثابة (إنجيل المسيحي الجاهل) الذي لا يستطيع القراءة في الكتاب المقدس.

وكان رجل الدين البيزنطي جرمانوس (Germanus) -وهو من أشد أعداء الإمبراطور البيزنطي والحركة اللاأيقونية- على رأس الذين اتهموا الإمبراطور ليو بالتأثر بقرار الخليفة الأموي، ودعا إلى الدفاع عن تقديس وعبادة الأيقونات، ومن أجل هذا قام بكتابة رسالة زعم فيها أن المسلمين قوم وثنيون، باعتبارهم يعبدون إلهاً حجريا يدعى خوبار Chobar في شبه الجزيرة العربية.

على أن رجل الدين البيزنطي ثيوفانس (Theophanes) (ق3هـ/8-9م) يعد أول من عَبَّر عن الرؤية البيزنطية الرسمية الأولى تجاه الإسلام، وربما يدهش المرء لتأخر الرد البيزنطي الرسمي على العقيدة الإسلامية الجديدة؛ غير أن ذلك يمكن تفسيره بفقدان العديد من المصادر التاريخية والدينية البيزنطية إبان فترة الصراع على الأيقونات في بيزنطة في القرن الثامن الميلادي، وهو ما يشكل صعوبة عامة لدارسي التاريخ البيزنطي في عصر الأسرة الأيسورية.

كان من الطبيعي أن تتأثر رؤية ثيوفانس للإسلام بالكتابات الشرقية المسيحية الأولى؛ حيث أعاد التأكيد على أن الإسلام ما هو إلا مجرد هرطقة مسيحية، وزعم أن نبي الإسلام نجح في الاستيلاء على ثروة السيدة خديجة -رضي الله عنها-، كما زعم نفس ما زعمه الكتاب المسيحيون الشرقيون من أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد خَبَرَ العهد القديم، وتعلمه على يد الراهب الأريوسي الذي تم نفيه إلى الجزيرة العربية.

على أن أخطر ما أوردته الرؤية البيزنطية الأولى للإسلام بواسطة رجل الدين ثيوفانس؛ كانت أن تعاليم مُحمَّد تقضي بالقتل والاعتداء، وأن المسلم الذي يقتل عدوه يدخل الجنة، وعلى الرغم من تحامله الشديد على الإسلام والمسلمين، فإنه لم يستطع إغفال بعض المزايا الطيبة كالاهتمام بالمساكين وعيادة المرضى.

وفي خضم الجدل الديني بين الإسلام والمسيحية في القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي، قام رجل الدين البيزنطي نيكيتاس Nicetas بكتابة رد على مؤلفات إسلامية أنكرت أن المسيح ابن الله، فزعم أن المسلمين أصحاب ديانة وثنية، وأنهم يعبدون وثنا في مكة، وأن رسولهم هو واضع الكتاب المقدس لديهم، واصفا سُوَرَ القرآن الكريم بأنها مجرد (أساطير محمدية).

وكان من الطبيعي أن تنتقل تلك الأخبار والرؤى البيزنطية عن الإسلام المسلمين إلى الغرب الأوروبي، الذي سنحت له الفرصة للتعرف على الإسلام عبر محور جديد يمكن تسميته بالمحور الغربي، إبان الفتح الإسلامي للأندلس في القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، وذلك عبر حكايات القوط الغربيين الفارين من وجه المسلمين بالأندلس؛ حيث تناقلوا وصفهم بالوثنية والوحشية في آن واحد.

كما أن المؤرخ الإنجليزي المعاصر بيده (Beda) قد انتقلت إليه أخبار الفتوحات الإسلامية بالأندلس، فوصف المسلمين بأنهم كفار وبرابرة وأعداء للمسيح، وكتب مؤيدا - من وجهة نظره- العقوبة الإلهيَّة التي أنزلها رب المسيحيين بالمسلمين بعد هزيمتهم في معركة بلاط الشهداء - 732م.

وخرجت مقالة إسبانية لمؤرخ مجهول ق 8-9م هاجمت الإسلام ورسوله بقسوة شديدة، كما استعانت المخيلة الأوروبية بشعر الملاحم، خاصة ملحمة الفارس رولان الذي قتل إبان حربه مع المسلمين ق 9م؛ وذلك من أجل وصف الفارس المسيحي بالشجاعة

والشهامة والفروسية والنبالة، ووصم المسلمين بالوثنية؛ لأنهم يعبدون العديد من الآلهة: مُحمَّد والشيطان وأبوللو... وغيرهم.

ووصل التأثير المسيحي إلى ألمانيا، فألفت إحدى الراهبات الألمان كتابا عن (آلام القديس بيلاجيوس)، وذلك في محاولة لتمجيد ما سمى بحركة شهداء قرطبة؛ حيث أخذ مسيحيو المدينة في سب الإسلام ونبي الإسلام، مبتهجين بعقوبة القتل، معتبرين أنفسهم شهداء في سبيل نصرة المسيحية، وأعادت الراهبة في كتابها التذكير بأن المسلمين وثنيون يعبدون أصناما من الذهب والرخام.

كما كتب بول الفاروس (Paul Alvarus) -إبان عهد الخليفة الأموي عبد الرحمن الأوسط 851م- كتابا جدليا ضد الإسلام، واستعان الخليفة المسلم بالصبر تجاه ذلك، وطلب عقد مجمع ديني في قرطبة، استنكر ما كتب، واستنكر حركة شهداء قرطبة من أساسها؛ غير أن حركة الاحتجاجات المسيحية واصلت طريقها؛ حيث أويلوجيوس مطران طليطلة عام 859م بعد أن كتب تقريرا عن الإسلام ومؤيدا (للشهداء) المسيحيين.

ويمكن ببساطة فهم تلك الكتابات الإسبانية المناوئة للإسلام باعتبارها أدوات وأساليب دفاعية عن المسيحية وعن الهوية الإسبانية للأندلس في مواجهة الفاتحين المسلمين؛ غير أنه من الملاحظ أن ردة فعل الإسبان تجاه الإسلام يمكن متابعها عبر مرحلتين: الأولى هي مرحلة العداء الشديد طوال القرن التاسع الميلادي، ثمَّ في نهاية الوجود الإسلامي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ويمكن فهم ذلك عبر مرحلة التصدي الفكري الأوَّلي للفتح الإسلامي في الأندلس، وأيضا مرحلة نجاح ما يسمى بحركات المقاومة المسيحية في طرد المسلمين من الأندلس. أما المرحلة الثانية فتتصف بالعقلانية نوعا ما، وتمتد من نهاية القرن التاسع الميلادي إلى بداية القرن الخامس عشر، وذلك بسبب المعاملة الطيبة من قبَل المسلمين، واندماج المسيحيين الإسبان في المجتمع الإسلامي بالأندلس، والمثال على ذلك ما كتبه بطرس دالفونسو -الطيب اليهودي، الذي اعتنق المسيحية في القرن الثاني عشر الميلادي- حيث كتب سيرة للنبي والإسلام تتصف بالروح العلمية، كما أنه تصور الإسلام باعتباره عقيدة يمكن للإنسان غير المسيحي أن يتجه إليها.

وبشكل عام عُرف المسلمون في الكتابات المسيحية الأوروبية باسم: السراكنة (Saracenus) ، وهناك اختلاف حول معنى الكلمة، وهل عنيت أبناء سارة، أم عبيد سارة، والاحتمال الأخير هو الأرجح؛ لأن المسلمين بطبيعة الحال ليسوا من نسل السيدة سارة. على أنه يجب أن نلاحظ أن تلك التسمية كانت موجودة لدى الرومان في الكتابات اللاتينية واليونانية قبل ظهور الإسلام؛ إذْ كانوا يطلقونها على العرب في بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية، ويبدو أنها انتقلت بخطئها إلى الأدبيات المسيحية في العصور الوسطى.

على أن هناك بعض المصادر التاريخية الأوروبية التي أدركت الحقيقة آنذاك؛ فها هو ذا المؤخ الإنجليزي بيده في القرن الثامن الميلادي يذكر أن العرب المسلمين من نسل السيدة هاجر، كما أننا نجد فيما بعد -وإبان اقتحام الحملة الصليبية الرابعة لمدينة القسطنطينية عام

1204 م- أن المؤرخ البيزنطي المعاصر للحدث -نيكيتاس كونياتس (Nicetas Choniates-) يتحدث عن العرب المسلمين المقيمين بالحي الإسلامي بالمدينة مستخدما اسم أبناء هاجر (Agarentes).

كما أسهمت كتابات نستاسيوس (Anustasius) أمين مكتبة البلاط البابوي في روما ق3هـ، 9م الذي قام بتجميع كافة الرؤى المسيحية الشرقية والبيزنطية تجاه الإسلام بوصفة هرطقة مسيحية، وكذلك كتابات الراهب الكارولنجى باسكاسيوس رادبيرتوس (Pascasius Radbertus) في القرن التاسع؛ حيث زعم بكذب الاسم دينية وأن المسيح الدجال سوف يأتي من الجانب الإسلامي، أسهمت جميعا في إذكاء روح التعصب ضد الإسلام في الغرب الأوروبي آنذاك.

على أن المساهمة الكبرى التي زادت من التصورات والرؤى الأوروبية السلبية تجاه الإسلام جاءت من قبل البابوية الكاثوليكية في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي.

فقد أراد البابا اربان الثاني أن يختلق المبررات المنطقية من أجل إطلاق دعوته التي عرفت بالحركة الصليبية ضد المسلمين والعرب في بلاد الشام، وهكذا فقد أراد أن يمنح دعوته شرعية عبر الهجوم المستمر في خطبه ورسائله على الإسلام والمسلمين؛ حيث وصفهم في خطبته الرئيسة المحرضة على الحرب الصليبية في مدينة كليرمون بجنوب فرنسا 1095 م بأنهم (جنس خسيس برابرة، متوحشون... أخضعوا المسيحيين بالسيف والتدمير والحرائق.. وسووا الكنائس بالأرض.. دمروا مذابح الكنائس التي نجستها ممارساتهم الخرقاء... كفار وثنيون أعداء للرب المسيحي...إلخ).

وهكذا شاعت تلك الصورة عن المسلمين في غرب أوروبا عبر خطبة البابا ورسائله. بدرجة غطت الأهداف الحقيقية للبابوية من وراء الحركة الصليبية بشكل واسع وكبير؛ حيث نرى في كتابات المؤرخين الصليبيين -الذين كان أغلبهم من رجال الكنيسة- سيلا من الاتهامات ضد الإسلام والمسلمين وبشكل خاص، طفحت كتابات المؤرخين الصليبيين الأربعة الأوائل (المؤرخ المجهول-فوشية الشارتري-بطرس توديبود-ريموندا جيل) الوحيدين الذين شهدوا وشاركوا في الحمله الصليبية الأولى، وكتبوا بفخر شديد عن اقتحامهم لمدينة القدس 1099م، وامتلأت كتاباتهم بالحقد والتشفي الشديدين ضد المسلمين والإسلام، خاصة إبان وصفهم التفصيلي لمذبحة القدس المروعة؛ حيث تباهوا بأنهم لم يتركوا مسلما على قيد الحياة بالمدينة المغتصبة آنذاك.

ويبدو أنه كان مقدرا للأوربيين أن ينتظروا حتى بدايات القرن الثاني عشر؛ حتى تصلهم أول إشارة معتدلة عن الإسلام ونبي المسلمين؛ فقد استطاع أخيراً جيبرت النوجنتى أن يكتب معترفا بأن المسلمين لا يُجِلّون رسولهم باعتباره إلها؛ بل لكونه رجلاً عادياً اصطفته السماء.

ولكون هذه الرؤية تتسم بالواقعية، فقد بدأ بعض المؤرخين الأوربيين في إدراك تلك

الحقيقة عن الإسلام، فاعترف كل من وليم المالمسبوري واوتو الفريزي بأن المسلمين لا يعبدون الأصنام ولا يعبدون نبيهم، وأنهم يعرفون الكتب المقدسة، وخاصة العهد القديم، وعملية الختان، كما أنهم لا يسبُّون المسيح أو الرسل؛ لكنهم (يضلون في نقطة واحدة فقط هي إنكارهم لألوهية المسيح، وأنه ابن الله، فضلا عن إيمانهم بمحمد، واعتباره خاتم المرسلين).

وطوال الفترة من القرن الثاني عشر وحتى القرن السادس عشر الميلادي، توالت بعض الآراء العقلانية نوعا ما، التي اختلفت عن الرؤى الأوروبية الأولى تجاه الإسلام، وأسهمت الترجمة اللاتنية الأولى للقرآن الكريم التي أمر بها بطرس المبجل رئيس (ديركلونى) في ذلك، كما انتهج بطرس موقفا متسامحا عبر محاولته هداية (الهراطقة) المسلمين إلى جادة الصواب.

كما ذكر كلّ من وليم من روبروك وروجر بيكون والراهب وليم الطرابلسى في القرن الثالث عشر أن المسلمين أصحاب عقيدة قريبة من الناحية الفكرية بالمسيحية.

واعتمادا على ذلك، وجدنا البابا بيوس الثاني (Pious II) -في القرن الخامس عشر للميلاد- يحاول احتواء النصر الإسلامي الكبير المتمثل في نجاح العثمانيين في فتح القسطنطينية 1453م، فيرسل إلى السلطان مُحمَّد الفاتح يحثه على اعتناق المسيحية، مقابل الاعتراف به إمبراطوراً على شرق أوروبا، مذكِّرا اياه بأن الفارق الوحيد بين المسيحية والإسلام إنَّمَا يكمن فقط في طبيعة الرب... وأن هذه مسألة يمكن تجاوزها بعد اعتناق السلطان الفاتح للمسيحية.

يتضح ممَّا سبق أن الرؤى المسيحية الأوروبية تجاه الإسلام والمسلمين قد مرت بمرحلتين: الأولى منذ القرن الثامن وحتى القرن الحادي عشر، وكانت تحض على كراهية وحرب الإسلام، ولكي تلجأ إلى دفاع عقدي محكم، قامت بالتنقيب في الكتاب المقدس علَّهُ يكون قد تحدث عن أولئك المسلمين، ووجدت ضالتها عبر رؤيا دانيال (الإصحاح السابع)، الذي يتحدث عن وجود وحش رابع يفترس كافة الوحوش السابقة، وعلى حين كان التأويل المسيحي الأول يعتبر أن الوحوش الأربعة هم: الآشوريون والفرس والإغريق والرومان، فقد استبدلت التفسيرات المسيحية الجديدة ذلك في أسلوب دفاعي عن نفسها تجاه الإسلام، بأن أعادت ترتيب الأمر؛ بحيث بدا أن المسلمين هم الوحش الرابع الذي سلبهم كافة الوحوش الأخرى، ممَّا سوف يعجل بقدوم يوم القيامة.

فضلا عن ذلك كان انتشار الرؤى الأخروية عن اقتراب نهاية العالم والآخرة مبررا للهجوم على الإسلام بشكل كبير؛ إذ حسب تفسيرات العهد القديم فإن انتصار الإسلام سوف يعني نهاية العالم، خاصة وأن العديد من الرؤى والتفاسير كانت قد توقعت أن ينتهي العالم في عام 1000 ميلادية فيما عرف بالرؤى الألفية؛ بينما امتدت المعرفة الثانية عن الإسلام من القرن الثاني عشر وحتى نهاية العصور الوسطى؛ حيث سادتها أوهام مسيحية، وتمنيات بامكانية احتواء المسلمين وذيوع بعثات التبشير، على أن أهم ما جاء بها

كان أن تم إنزال شخصية النبي -عليه الصلاة والسلام- من مرتبة إله المسلمين إلى مرتبة النبي المرسل.

وطوال فترة العصور الوسطى أسهمت العلاقات السياسية والعسكرية بين المسلمين وأوربا بجناحيها الشرقي والغربي في زيادة حالة الاحتقان والعداء ضد الإسلام، حدث هذا منذ وقت مبكر في القرن السابع الميلادي؛ حيث نجح المسلمون في اقتطاع ولايات الشام وفلسطين ومصر من الإمبراطورية البيزنطية، وحدث هذا بعد أن بدأ المسلمون في غزو التخوم البيزنطية في شمال الشام وآسيا الصغرى، فضلا عن الاستمرارفي فتح شمال إفريقيا.

كما قام الأمويون بمحاولات مبكرة لفتح القسطنطينية عاصمة دولة الروم في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي، ونجحت إحدى الحملات في فتح جزيرة أرواد القريبة من القسطنطينية؛ حيث استقر المسلمون بها لسبع سنوات.

وبعد ذلك أرسل الخليفة سليمان بن عبدالملك حملة كبرى بقيادة أخيه مسلمة لفتح القسطنطينية، قامت بمحاصرتها لعام كامل؛ لكنها فشلت لعدة أسباب أهمها بسالة القوات البيزنطية، وبرد الشتاء القارس، وتفشي الأمراض بين رجال الحملة، فضلا عن طول خط الإمدادات ما بين دمشق والقسطنطينية، غير أن الحملة نجحت -قبل الانسحاب بناء على أوامر الخليفة عمر بن عبدالعزيز- في إجبار الإمبراطور البيزنطي ليو الأيسوري على الموافقة على بناء مسجد للمسلمين داخل أسوار القسطنطينية، من أجل التجار المسلمين الوافدين على المدينة، وربما أيضا تيمنا بفتحها ذات يوم، وهو ما تأخر حدوثه حتى نجاح العثمانيين في ذلك في منتصف القرن الخامس عشر للميلاد، كما استمرت الدولة العباسية في حروبها مع البيزنطيين وفي اجتياح أراضي آسيا الصغرى عبر ما عرف بالصوائف والشواتي؛ حيث دفعت الإمبراطورة ايرين (Irene) الجزية للخليفة المسلم هارون الرشيد، وفي الوقت الذي نجح خلاله المسلمون في فتح الأندلس بالقرن الثاني الميلادي، فإن المد الإسلامي عبر الأغالبة في تونس فضلا عن مشاركة الأندلسيين البحرية قد أسهم في فتح صقلية في القرن التاسع الميلادي.

وإذا عدنا إلى جبهة المواجهات العسكرية في الشرق، فإن ظهور الأتراك السلاجقة على مسرح الأحداث في القرن العاشر قد أسهم في حماية الخلافة العباسية؛ بل إن السلاجقة طوروا من عملياتهم العسكرية النوعية لدرجة إنزال هزيمة مروعة بالبيزنطيين في ملاذكرد 1071م، ونجحوا في أسر الامبراطور دومانوس الرابع (Romanus IV).

كان تأثير كارثة ملاذكرد كبيراً على بيزنطة من النواحي السياسية والعسكرية، ممَّا ساعد على زيادة إفراز دعاية ضد الإسلام والأتراك المسلمين، الذين تم وصفهم بالوحشية؛ غير أن السلاجقة أعادوا الكَرَّة بعد قرن كامل، ونجحوا في إيقاع هزيمة كبرى بالإمبراطور مانويل في ميرياكيفالوم 1176م.

وفي الوقت نفسه حمل الأتراك الدانشمنديون وسلاجقة قونية راية الجهاد الإسلامي ضد الإمبراطورية البيزنطية الأرثوذكسية في القرن الثاني عشر والثالث عشر. قبل أن يظهر نجم العثمانيين المسلمين كقوة إقليمية كبرى في هضبة الأناضول، ورويدا رويداً أخذوا في قضم الممتلكات البيزنطية في آسيا الصغرى، إلى أن نجح السلطان العثماني أورخان 1354م -مستغلا حالة الضعف البيزنطي- في العبور بقواته إلى أوروبا؛ حيث استولى على مدينة غاليبولي، وكانت تلك هي المرة الأولى -في تاريخ الصراع بين الإسلام والمسيحية في العصور الوسطى- التي تمكنت فيها الجيوش الإسلامية من الوصول إلى أوروبا عبر الشرق، بعد أن كانوا قد نجحوا قبل ذلك بعدة قرون في النفاذ إليها عبر المحور الغربي، المتمثل في الفتوحات الإسلامية في الأندلس.

على أية حال انداح العثمانيون في البلقان وبلاد اليونان، وأحكموا قبضتهم على الإمبراطورية البيزنطية التي تقلصت لتحوي مدينة القسطنطينية فقط في القرن الخامس عشر الميلادي، لدرجة أن الإمبراطور البيزنطي المسيحي كان بمثابة تابع إقطاعي للسلطان العثماني، وها هو ذا السلطان بايزيد (الصاعقة) يخاطِب الإمبراطور ما نويل قائلا: (... احكم -فقط- داخل أسوار مدينتك. أما ما وراء الأسوار، فَملْكٌ لي).

قام السلطان بايزيد والسلطان مراد الأول بحصار مدينة القسطنطينية في الأعوام 1396، 1401م دون أن تسقط المدينة، التي قاومت حتى نجح السلطان مُحمَّد الثاني -الذي لقب بالفاتح بعد ذلك- في تقويض أسوار المدينة واقتحامها عام 1453م.

وهكذا ساعد اجتياح العثمانيين لبيزنطة ودخول خيولهم إلى القسطنطينية -العاصمة المسيحية الأرثوذكسية- في ترسيخ صورة عدائية نحو الأتراك العثمانيين، وتجاه الدين الإسلامي بطبيعة الحال، وقام المؤرخون البيزنطيون واللاتين المعاصرون لحدث سقوط القسطنطينية بوصم العثمانيين بالوحشية والوثنية، كما صبوا جام غضبهم على السلطان المسلم مُحمَّد الفاتح فوصفوه بـ التركي الكافر، الثعبان، الشيطان، عدو المسيح، الحواري الحقيقي للشيطان..، كما تم سحب نفس الأوصاف على المسلمين كافة، بوصفهم كذلك.. وحشيين.. وثنيين. وشهوانين أيضا. كلّ ذلك أسهم في تكوين وتشكيل صورة سلبية للإسلام والمسلمين في المخيلة الأوروبية.

ولم تكن العلاقات بين المسلمين وأوربا تنحصر فقط في الحروب والجدال العقدي بين الجانبين، فقد حتمت علاقات الجوار، ومنطق المصلحة المشتركة في كثير من الأحيان وجود العديد من العلاقات الاقتصادية بينهما، فقد وصل التجار العرب منذ وقت مبكر إلى أقصى الغرب الأوروبي، فقد كان هناك الكثير منهم في بريطانيا الرومانية، كما انتشر التجار العرب في القرنين السادس والسابع الميلاديين في دولة الفرنجة؛ في مدن باريس ومارسيليا وتور؛ حيث كانوا يمارسون تجارتهم بين الشرق والغرب قادمين إلى الغرب الأوروبي عبر الطرق البرية والموانئ الأوروبية.

ولا تتحدث مصادر دولة الفرنجة بعد ذلك عن التجار العرب والمسلمين المشارقة؛ إلا

أن ذلك لا ينفي وجودهم، خصوصاً في ظل العلاقات الجيدة بين شارلمان (771- 814) وهارون الرشيد (786-809) بحسب المصادر الفرنجية؛ حيث حملت سفارة الأخير الكثير من الهدايا الشرقية الفاخرة، كالتوابل والعطور، ونظراً لعدم تأثر التجار بحالات العداء المتبادلة بين المسلمين في الأندلس وشارلمان، فإن ذلك يسمح باستنتاج وجود الكثير من التجار المسلمين المغاربة والأندلسيين في أسواق الفرنجة في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين. وهناك دليل يثبت انتشار التجار والنقود العربية الإسلامية في دولة الفرنجة زمن شارلمان؛ حيث ذكر تودولف أسقف أورليانز (798م) أن العملة الذهبية العربية كانت تنافس العملة اللاتينية الفضية، ويدل هذا أيضا على بداية سيطرة العملة العربية على سوق النقد في غرب أوروبا بفضل قيمتها العالية، ونقاء عيارها قياساً بالعملات الأوروبية في العصور الوسطى، ممَّا جعلها تتصدر -إلى جوار العملة البيزنطية- عرش المعاملات التجارية في كلّ أرجاء أوروبا، ومن ذلك العملات التي اكتشفت في أقاليم بحر البلطيق في روسيا، وكانت تعود إلى الفترة ما بين القرنين السابع والحادي عشر الميلادي... كما انتشر التجار المسلمون في أسواق القسطنطينية في شكل متزايد وبخاصة في القرن العاشر الميلادي، حيث اهتم (كتاب الوالي) بالإشارة إليهم في فصول عدة منه، وكانوا يحملون معهم الحرير والتوابل والعطور والملابس الكتانية، وعلى رغم أن المدة القانونية لبقاء التجار الأجانب في القسطنطينية كان يجب ألا تتجاوز ثلاثة أشهر، فإن (كتاب الوالي) يتحدث عن وجود تجار عرب شوام بلغت إقامتهم في القسطنطينية عشر سنوات متصلة.

كما ظهر التجار المسلمون بكثافة في أشهر الأسواق السنوية البيزنطية طوال العصور الوسطى، وهو سوق مدينة سالونيك في بلاد اليونان، وهناك نص أدبي يعود إلى القرن الثاني عشر الميلادي يصف طوبوغرافيا السوق، ويذكر الكثير من التجار المسلمين القادمين من مصر والشام والأندلس، هذا إضافة إلى السلع والبضائع التي جلبها التجار إلى السوق.

كذلك انتشر التجار المسلمون في أسواق المدن التجارية الإيطالية كأسواق البندقية وجنوة، إضافة إلى أسواق مدينة بيزا في القرن الحادي عشر الميلادي، وكان المسلمون قد نجحوا في غزو المدينة الأخيرة مرتين (1004-1011).

كان التأثير العربي في الممارسات التجارية في بيزنطة والمدن التجارية الإيطالية واضحاً بدرجة كبيرة؛ حيث تعلم التجار الإيطاليون -الذين حملوا عبء الثورة التجارية الأوروبية منذ بداية القرن الثاني عشر- درسهم التجاري الأول من تجار الضفة الشرقية للبحر المتوسط، وهم التجار العرب والمسلمون؛ فقد تعلم الأوروبيون منهم استخدام الكثير من مفردات التعامل التجاري، التي دخلت إلى اللغات الأوروبية مثل: السمسار (Sansal) ، الحلقة (Galega) ، تعريفة الجمارك (Tariffa) ، ديوان الجمرك (Douane)، وغيرها.

فضلاً عن ذلك، فقد تعلم التجار البيزنطيون والإيطاليون فن إدارة الأسواق من العرب

والمسلمين، فاستحدثوا وظيفة المحتسب المعروفة في المجتمع العربي الإسلامي، وكان والي القسطنطينية هو الذي يتولى أعمال المحتسب في أسواق المدينة، وتنظيم عمليات البيع والشراء وتوقيع العقوبات ومراقبة التجار وحوانيتهم، ومراجعة السلع والبضائع التي تباع في الأسواق. كما كانت للمحتسب في القسطنطينية منذ القرن العاشر الميلادي، والمنسوجات الكتانية، وتجار العطور والروائح وصناع الشمع والصابون والجلود وباعة المواد الغذائية، والجزارين وباعة لحوم الخنازير والأسماك والخبازين وأصحاب الحانات.

كما تجلى تأثير الفكر الاقتصادي العربي الإسلامي في أوروبا في مناطق جغرافية أخرى، من ذلك عندما وصل الصليبيون إلى الشرق العربي، ونجحوا في تأسيس مملكة بيت المقدس وإمارات الرها وأنطاكية، إضافة إلى كونتية طرابلس، ولم يجدوا بداً من الاعتماد على (المحتسب) في إدارة الأسواق الصليبية ومراقبتها، فاستخدموا هذه الوظيفة تحت لقب (Methesep) ، وكان يساعد الفيكونت في الإشراف على عمليات البيع والشراء في الأسواق، ومراقبة السلع الفاسدة، وتقديم تقرير عن التجار الجشعين للفيكونت، إضافة إلى ذلك كان على المحتسب مراقبة أسواق الصليبيين؛ تلافياً لوقوع أي حوادث بين البائعين والمشترين.

كذلك طال تأثير الفكر الاقتصادي العربي في التجارة الأوروبية مجال النقود والعملات، وعلى رغم أن الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان قام بضرب الدنانير الذهبية الإسلامية للمرة الأولى (74هـ/693م) في محاكاة للنقود الذهبية البيزنطية، إلا أن تلك المحاكاة لم تستمر إلى الأبد، فكانت للمسلمين عملاتهم الذهبية المتفردة بنقوشها أولاً وبقيمتها العالية ثانياً.

على أن التأثير الكبير للنقود العربية والإسلامية كان في بلاد الشام، إبان السيطرة الصليبية؛ فحينما استقر الصليبيون في الشرق العربي وبدءوا في إقامة مؤسساتهم الإدارية والحكومية، واجهتهم مسألة إيجاد النظام المالي الملائم، ونظراً للانتشار الساحق للنقود الذهبية الإسلامية في الشام، في مقابل ما عرفوه في أوروبا الغربية من نقود فضية مثلت العماد الرئيس للنظام النقدي الأوروبي، فقد حاول الصليبيون التوافق مع النظام المالي الإسلامي، وهكذا كان عليهم اتخاذ قرار حاسم، وهو استمرار العمل بالعملة الذهبية على حساب العملات الفضية التي تعودوا عليها في بلادهم.

ونظراً إلى وجود الكيان الصليبي وسط مجتمع نقدي متقدم، وحينما لم تكن للصليبيين عملتهم الخاصة بهم، قاموا بتقليد النقود الذهبية والنحاسية الخاصة بالخليفة الفاطمي المستنصر بالله (427 - 487هـ/1035-1094م)، وكذلك نقود أخرى للخليفة الآمر بالله (495-524هـ /1102-1130)، كما قاموا بتقليد نقود الأمير الظاهر غازي الأول (1186-1316).

وكانت هذه النقود الصليبية تنقش عليها الكتابات نفسها المسجلة على النقود الفاطمية للفظ الجلالة (الله)، واسم النبي (محمد) ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وأسماء الخلفاء ودور السك

الإسلامي والتواريخ الهجرية تماماً، كما كان ينقش على النقود العربية.

على أن تقليد الصليبيين للنقود العربية في الشام -بنقوشها الإسلامية نفسها- كان لا بد له من الاصطدام بتعليمات الكنيسة الغربية، وهو الأمر الذي يفسر التغير الكبير في العملات الصليبية منذ العام 1250م، بسبب فزع الرسول البابوي وصدمته من وجود نقود صليبية تم ضربها في عكا وطرابلس، ونقش عليها اسم النبي - صلى الله عليه وسلم - إضافة إلى التاريخ الهجري، ممَّا حدا بالبابا انوسنت الرابع (1241-1245م) إلى إصدار قرار بتحريم التعامل بالنقود الصليبية ذان النقوش الإسلامية، ممَّا دعا السلطات الصليبية للالتفاف حول قرار الحرمان الكنسي عن طريق سك عملات جديدة تحتفظ بالنقوش الإسلامية السابقة نفسها، مع إضافة بعض النقوش المسيحية للعملة، مع كتابة (ضرب بعكا) (1251م)، يتجسد الأب والابن والروح القدس.

ونظراً لتلقي التجار الإيطاليين درسهم التجاري الأول من التجار العرب والمسلمين الشوام على الشواطئ الشرقية للبحر المتوسط، كان من الضروري لأشهر العقود التجارية التي استخدمها الأوروبيون -وهو عقد Commenda- من التأثر بالمؤثرات الإسلامية، وهناك تشابه كبير بينه وبين عقد القراض أو المضاربة الإسلامي الذي يتكون من طرفين: تاجر مستثمر وآخر مسافر أو جوال، بحيث يدفع الطرف الأول للثاني رأس المال؛ ليكون أمانة في يده، ولا يقوم بالتدخل في عملية المضاربة، وعند الأرباح يحصل صاحب رأس المال على النصف أو الثلث أو الثلثين بحسب بنود العقد.

وفي المضاربة الإسلامية كانت خسارة التاجر الجوال أو المسافر لرأس المال محل خلاف بين الفقهاء؛ ففي حين يذكر السر خسي أن المضارب مسؤول عن ضياع رأس المال؛ لأنه أمانة في يده، يذكر الشيباني والسيوطي عكس ذلك وينفيان مسؤولية المضارب عن خسارة رأس المال.

وهكذا يظهر تأثر عقد القراض أو المضاربة الإسلامي في عقد Commenda على رغم وجود فوارق شكلية بينهما، من ذلك أن عقد المضاربة كان يستخدم على نطاق واسع في التجارة البرية، في حين كان هذا العقد يستخدم على نطاق واسع في التجارة البحرية، كذلك كان رأس المال في Commenda يتكون من النقود أو المعادن الثمينة أو السلع والبضائع؛ بينما كان رأس المال في عقد القراض من النقود فقط.

لقد بلغت الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى مكانتها السامية الكبرى عبر الاعتماد على مبادئ الإسلام وحضارات الشعوب التي دخلت في الدين الجديد. كان الإسلام يتصف بالرحابة؛ إذ اعتمد على التراث الثقافي لحضارات كافة الشعوب التي هداها الله بالإسلام، وهكذا أسهمت روافد عربية وفارسية ومسيحية شرقية ويونانية وأندلسية بل وهندية في جعل حضارة الإسلام تتصف بالعالمية؛ لكونها لم تستنكف من الاعتماد على تراث أقوام وأصحاب ديانات مغايرة للإسلام، ولقد احتضن الإسلامُ والحضارةُ الإسلامية التراث العلميَّ والفلسفي اليوناني، الذي مَثَّل إلى جوار الديانة

المسيحية والغزوات الجرمانية الأعمدة الثلاثة التي قام عليها التاريخ الأوروبي الوسيط، ونتيجة لدخول المسيحية إلى العالم الروماني، فقد حرضت الكنيسة على رفض التراث الكلاسيكي الذي تميز بوثنيته. وحاولت تطويعه لكي يحمل مضامين مسيحية. وهكذا ضاقت الطبقة الوحيدة المتعلمة في أوروبا (الرهبان ورجال الدين) بتراث أجدادها. في وقت فتح فيه المسلمون أذرعتهم، وخاصة في العصر العباسي، من أجل تلقف هذا التراث الكلاسيكي، واكتست أعمال الترجمة في بغداد مكانة كبرى، حيث جرى ترجمة معظم التراث اليوناني والفارسي والهندي، ممَّا أسهم في رفع سقف المعرفة العلمية والثقافية لدى المسلمين مقارنة بالأوروبيين في العصور الوسطى، الذين سمعوا -فيما بعد- عن نجاح العرب المسلمين في ترجمة التراث اليوناني والإرادة عليه؛ إذا اعتبره المسلمون بمثابة أرضية علمية وفكرية انطلق منها العلماء والمفكرون المسلمون، وبزغت في سماء الحضارة الإسلامية والعالمية أسماء مثل جابر بن حيان في الكيمياء ق8، والخوارزمي في الرياضيات والفلك ق9، والرازي في الطب ق10، وابن الهيثم في الطبيعة، وابن سيناء في الطب ق 11، وعمر الخيام في الفلك والرياضيات ق12م، وابن رشد في الفلسفة ق 12م.

وأصبحت الحضارة الإسلامية واللغة العربية ذات طابع عالمي، بفضل إنجازات العلماء والمفكرين المسلمين الذين كتبوا أعمالهم بالعربية ضمن رقعة جغرافية امتدت من الهند والصين شرقا حتى الأندلس غربا. وفيما بعد -خلال القرن الحادي عشر- أدركت أوروبا عمق الهوة بينها وبين المسلمين، وأدرك رجالات الكنيسة خطأهم الفادح في رفض كافة ما يأتي من جانب المسلمين، وحدثت حركة أوروبية عكسية للترجمة، قامت بنقل أعمال العلماء والمفكرين المسلمين إلى اللاتينية، وبدا ذلك على يد قسطنطين الإفريقي 1087م؛ حيث ترجم كتب الطب الإسلامية، بينما بدأ الراهب هيرمان الكسيح في ألمانيا ترجمة بعض المؤلفات حول الرياضيات والفلك إلى اللاتينية.

- وكان من الطبيعي أن تكون إسبانيا (بلاد الأندلس) أحد أهم المعابر الثلاثة لانتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا، إلى جوار صقلية وبلاد الشام. غير أن الأندلس تتميز بالأفضلية لمكوث المسلمين بها أكثر من سبعة قرون، علاوة على وجودها داخل القارة الأوروبية، فضلا عن وفرة التراث العلمي والأدبي بالأندلس.

وباركت الكنيسة فائدة نقل الثرات الإسلامي بالأندلس، وكان ذلك بعد نجاح المسيحيين في إسقاط مدينة طليطلة (Toledo 1085م، التي كانت تزخر بالكتب والمكتبات خلال الحقبة الإسلامية، حيث مثلت بعد ذلك كنزا من المعرفه للباحثين الأوربيين المنقبين والمعترفين بفضل التراث العربي الإسلامي.

- وفيما بعد تأثرت الجامعات الأوروبية -التي قامت في القرن الثاني عشر (بولونيا- باريس-سالرنو)- بالتراث الحضاري الإسلامي، فاعتمدت جامعة سالرنو -التي عرفت بدراساتها الطبية- على التراث الطبي لدى المسلمين، فضلا عن تأثر تلك الجامعات بنظام

التدريس الموجود لدى المسلمين في القيروان والأزهر، وغيرهما من المساجد والمدارس الإسلامية، من وجود شيخ العامود، ومنه استقى الأوربيون مسألة (أستاذ الكرسي)، كذلك دور المعيد الذي يقوم بإعادة الدرس على الطلاب.

- ولبيان مدى تاثير المسلمين والحضارة الإسلامية على أكبر رجالات أوروبا في القرن الثالث عشر للميلاد يجب أن نشير إلى الإمبراطور فريدريك الثاني (1194-1250م) الذي عشق الحضارة الإسلامية بفصل مولده وتربيته في صقلية داخل أجواء إسلامية، فإدراك سموها وفائدتها على المستوى الإنساني، وهو الأمر الذي دفعه إلى التقرب من المسلمين والنهل من التراث الإسلامي؛ لأنه كان عالما وأديبا تذكر المصادر الأوروبية أنه كان يجيد ست لغات من بينها العربية، وكان يحب سماع صوت الآذان لدى المسلمين.

وإيمانا من الإمبراطور فريدريك بفضل المسلمين على الحضارة العالمية آنذاك، ولإدراكه للوجه الحقيقي للإسلام والمسلمين، فقد ماطل ورفض عدة مرات بإصرار بالغٍ دعوة بابوات الكنيسة المتكررة له للقيام بحرب صليبية ضد الأيوبيين في مصر والشام، فقد كان صديقا للسطان الكامل الأيوبي، وكان البلاط الإمبراطوري في صقليه والبلاط السلطاني في القاهرة يتبادلان العلماء والنظريات الرياضية والفلكية بتشجيع من العاهل المسيحي الذي عُرف بحبه الشديد للعلم والعلماء المسلمين، وهو ما شجعه على احتضان العلماء الأوروبيين المسيحيين في بلاطه أمثال ميخائيل سكوت وليونارد البيزي.

غير أن قرار الحرمان الكنسي -الذي أصدرته البابوية ضده- جعل الإمبراطور فريدريك يخرج -رغما عن رغباته الحقيقية- في حملة صليبية، كانت في الحقيقة مجرد نزهة بحرية لكي يستجدي ويتوسل مدينة القدس من صديقه المسلم السلطان الكامل؛ لكي يرد اعتباره لدى الكنيسة الكاثوليكية، ولدى المجتمع الأوروبي المسيحي.

وكانت المفاجأة أن وافق سلطان المسلمين -في إجراء صادم- على تحدي المشاعر الإسلامية، وعلى تسليم مدينة القدس إلى صديقه الإمبراطور المسيحي فريدريك الثاني... لكن تلك قصة أخرى.

****

*) باحث وأكاديمي من مصر.